

# آثار اللغة العربية في كيرالا

بقلم : الأستاذ عبد الله الفيضي الديلمي

إن ولاية "كيرالا" ؛ أرض خصبة مخضرة ساحلية البحر ، ولها مكانة مرموقة في الأوساط التجارية القديمة في العالم ، وكانت العلاقة الأخوية ؛ والصلة الودية بين العرب وأهل ملبار مؤتمة منذ قرون طويلة ؛ حتى قبل المسيح ، وإن جمالها ومناظرها الطبيعية أعجب بها العرب إعجاباً ، وكانوا يجلبون إنتاجات كيرالا ؛ لا سيما الفلفل والزنجبيل إلى بلاد بعيدة ؛ مثل اليمن والشام ، وتزوجوا بنساء كيرالا وتوطن بعضهم في المناطق الساحلية ، وامتزجت ثقافتهم وحضارتهم بتقاليد كيرالا وعاداتها ؛ حتى صارت جزءاً لا يستهان به .

كيرالا أول ولاية وطأتها أقدام العرب ، وتشرفت بدخول الإسلام ، يقول بعض المؤرخين : إن الإسلام دخل في كيرالا في عهد النبي الكريم ﷺ ، إن آفاً من السكان استقبلوا العرب استقبالاً حاراً ، وقاموا يعتنقون الإسلام ، ويفتخرون به .

إن اللغة العربية ؛ أثرت في مواطني كيرالا ، ولغتهم المحلية - المليالية - تأثيراً عميقاً واسع النطاق ؛ كما أثرت في لغات أخرى من لغات الهند ، يقول المفكر الإسلامي سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله : " من مظاهر تأثير المسلمين

أثار اللغة العربية في كيرالا

في ثقافة الهند وحضارتها تأثير اللغة العربية - التي تخصصهم - والتي حملوها إلى هذه البلاد في لغات الهند ولهجاتها وأدبها وحضارتها".

(المسلمون في الهند: ص/٦٤)

توغلت اللغة العربية في كيرالا، وترعرعت في تربتها الخصبة، إن العلاقة الودية بين أهل مليبار وتجار العرب فتحت آفاقاً جديدةً لتبادل الأفكار والخواطر، وتفاهم الثقافات واللغات، اعتبرت اللغة العربية قبل قدوم الإسلام لغة تجارية بين الشعبين، ونالت قبولاً حسناً.

إن الحقائق التاريخية تشير إلى أن اللغة العربية بلغت أوجها في عهد الساموتريين ملوك "كاليكوت" (CALICUT)، إن رسالة الملك البرتغالي التي أرسلها إلى الملك ساموتري بواسطة واسكودي غاما؛ كانت في اللغة العربية، وإن الرسالة للملك البرتغالي التي منحها الجنرال الإنجليزي كبرال لساموتري في ٨/سبتمبر ١٥٠٠م؛ كانت أيضاً في اللغة العربية. **نداء الهند**

إن المخدومين - الأسرة الشهيرة تشبه أسرة الإمام ولي الله الدهلوي<sup>رح</sup> في نشر العلوم الدينية - لعبوا دوراً فعالاً في إحياء اللغة العربية ونشرها، وبذلوا في سبيل ذلك قصارى مجهواتهم، وكانوا من الشخصيات الكبيرة التي أنجبتهم كيرالا، وكانت "فناي" - بلدة في مليبار - مركزهم الرئيسي للنشاطات الإسلامية والإصلاحية، وصنفوا كتباً قيمة مؤثرة في اللغة العربية، وكان لمؤلفاتهم صدى عظيم في العالم الإسلامي، ومن مؤلفاتهم كتاب: "مرشد الطلاب"، و "سراج القلوب"، و "شمس الهدى"، و "تحفة الأجيال"، و "إرشاد القاصدين"، و "هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء" للشيخ

الفاضل زين الدين الأول ، وكتاب : "فتح المعين" ، و "إرشاد العباد" ، و "تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين" للشيخ زين الدين الثاني ؛ تلميذ أحمد بن حجر المكي رحمه الله .

نبغ عدد كبير من العلماء الكرام ، برعوا في علوم مختلفة ، خاضوا أعماقها ، وأتقنوا فيها إتقاناً ، وألفوا فيها كتباً كثيرةً ، إن مؤلفاتهم ثروة علمية ذات قيمة عظيمة شهد لها العلماء الكرام بالفضل ، وهذا كتاب فتح المعين للشيخ زين الدين المخدم الثاني ؛ كان من الكتب المقررة في المنهج الدراسي في "كيرالا" و "جاوا" و "سنغافورة" و "مصر" ؛ وفي الدول العربية .. وشرحه وعلق عليه علماء العرب مثل حاشية إعانة الطالبين للسيد أبي بكر بن السيد محمد شطا الدمياطي ، وحاشية ترشيح المستفيدين للإمام العلامة السيد علوي بن أحمد السقاف ؛ شيخ السادات بمكة المكرمة .

و تحفة المجاهدين لنفس المؤلف كتاب فريد لم يسبق ، يلقي الضوء على أوضاع كيرالا القديمة ، وعاداتها و تقاليدها ، و يوضح قدوم البرتغاليين ، و حملتهم الشرسة ضد المسلمين ، وهو مرجع يعتمد عليه المؤرخون ، قد ترجم إلى لغات شهيرة في العالم ، إن الكتب التي ألفها محمد القاضي الأول ؛ يبلغ عددها إلى أكثر من خمسمائة كتاب نظماً ونثراً .

أنجبت كيرالا شعراء مفلقين بجل يمثلهم الزمان ، وافتخرت بهم كيرالا على الولايات الأخرى ، ومن بعض الدواوين كتاب "هداية الأذكيه إلى طريق الأوليه" للشيخ زين الدين المخدم الأول ، و "فتح المين" و "إليكم أيها الإخوان" لمحمد القاضي الأول ، و "نفائس الدرر" و "مقاصد النكاح" و "صلى الإله" لعمر القاضي

أثر اللغة العربية في كيرالا

الولينكوتي وغيرها ، ولا شك فإن هذه المؤلفات تدل على اهتمام مسلمي كيرالا باللغة العربية واعتنائهم بها .

تسربت اللغة العربية إلى اللغة المليالية - اللغة الرسمية لولاية كيرالا - وامتزجت بدمها ولحمها ، وأصبحت جزءاً لا ينكر ، يقول العالم اللغوي الدكتور "أرجنان ولاياني" (Arjunan Vellayani) : إن آفاً من الألفاظ العربية ؛ قد تسربت إلى المليالية ، وقد اختلف الآن شكلها وصورها ، ولا تزال تجرى بها أسنة الناس (Gaveshana Megala, p.155-156) ، ومعلدها جنترت العالم اللغوي الغربي الذي ألف معجماً في المليالية ؛ حيث يقول : إن اللغة المليالية تستوعب ثلاثة آلاف من الألفاظ العربية .

وكانت نتيجة تأثير اللغة العربية في المليالية أن تشكل لغة خاصة مستقلة تسمى : "المليالية العربية" صارت لغة رسمية للمسلمين في مليبار يتكلمون بها ، ويكتبون وينشدون فيها ، وقام عدد كبير من الأدباء والشعراء يؤلفون الكتب القيمة ، ويقرضون الأشعار والنشائد فيها ، وأتحفوا المجتمع الكيرالوي مكتبة زاخرة يتجمل بها تاريخ كيرالا .

إن المليالية العربية نشأت في القرن التاسع المسيحي أو في أوائل القرن العاشر ، استوعبت ألفاظاً عديدة من لغات شتى كالسنسكريتية والفارسية والأردية والتاميلية والكرناتيكية وغيرها ، وأصبحت لغة مستقلة ذات حروف خاصة ، وأسلوب رائع ، وشكل جذاب ، وقام بعض العلماء بإصلاح حروفها وتهذيبها ، وفي طليعتهم السيد ثنه الله ، والجاج كنج أحمد الجاللكتي ، ومحي الدين المليار المعروف بالشجاع ، ومحمد عبد القادر الوكمي وغيرهم .

إن الكتب والمخطوطات ودواوين الشعر التي ألفها المسلمون في المليالية العربية تزيد على خمسمائة ، ومن الجدير بالذكر أن كتبهم لم تقتصر على العلوم الشرعية ، بل صنفوا في كل فن كتباً قيمة ؛ حتى القصص والرواية ، وقاموا بترجمة القرآن الكريم ، والكتب الشرعية إلى المليالية العربية ، ، وحافظوا عليها قلباً عن قلب ، إن " محي الدين مالا " في مدح الشيخ عبد القادر الجيلي الذي ألفه القاضي محمد الأول أقدم المؤلفات في المليالية العربية ، ولا شك فإن هذه الكتب والدواوين دوراً ملحوظاً في إيقاظ الشعور في قلوب المسلمين .

استخدم النصارى المليالية العربية وسيلة لنشر دينهم و ثقافتهم ، وألفوا فيها بعض كتبهم ، يقول المؤرخ النصراني سكريبيا ؛ أستاذ كلية سنت برلمان بجنغنا شيري : " ولعل البرتغاليين تبادلوا الآراء والأفكار مع الكيرالوين بوسيلة اللغة العربية التي تعتبر لغة تجارية بكاليكوت ، كما استخدمت البعثات التبشيرية في أوائلها العربية وسيلة لنشر ديانتهم " . (كتابان قديمان " في المليالية " : ص ١٥٧-١٥٩) .

وأعجب اللغويون الإنجليزيون بالمليالية العربية ، ونقلوا بعض الدواوين للشاعر المفلق محي الدين كوتي إلى الإنجليزية .

ولكن - مع الأسف الشديد - أن البرتغاليين والإنجليز عاقبوا المسلمين في كيرالا عقاباً شديداً ، وأخذوا يقتلونهم ويسومونهم سوء العذاب ، حاولوا لاستئصال شافة الإسلام من تربة كيرالا ، وتنصير المسلمين بأسرها ، لتحقيق هذا الهدف المشؤد أفنوا كتباً عديدة ألفها المسلمون في العربية والمليالية العربية ، نظماً ونثراً ، وصادروا أو أحرقوا بعض الكتب والكتيبات التي تبث الكراهية ضد المحتلين .

قد حافظت كيرالا على الشخصية الإسلامية طيلة هذه

أثر اللغة العربية في كيرالا

القرون ، واهتمت باللغة العربية اهتماماً بالغاً ، إن آلاف المدارس الدينية والدروس المسجدية ، ومئات الكليات ، وبعض الجامعات في كيرالا تمثل دوراً بارزاً في المحافظة على اللغة العربية ، إن الآلاف من الكيرالوين نالوا المهارة في التكلم في اللغة العربية والكتابة فيها ، كيرالا هي الولاية الوحيدة التي تدرس اللغة العربية في المدارس الحكومية .

لما اطلع أدبه العرب وعلماءها على بعض الثروات العلمية والأدبية أعجبوا بها إعجاباً ، واعترفوا لها بالفضل والتقدير ، يقول الأديب العربي ، والكاتب الجليل سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، رحمه الله في كتابه : (المسلمون في الهند) : "وللمسلمين في جنوب الهند" (ملداس ، وكيرالا ، وبلاد ملييار) نشاط كبير في نشر التعليم الديني والمدني ، وتأسيس المدارس الدينية العربية ، والكليات الإسلامية ، ويمتاز أهل ملييار في ولاية كيرالا بشغفهم باللغة العربية وتمسكهم بها ، ولهم مدارس منتشرة في المديریات والمدن الكبيرة ، ويتبعها القرى التي تعلم فيها اللغة العربية ... وعلماء هذه المنطقة أقدر على اللغة العربية منهم على لغة "أردو" التي هي لغة الشعب الإسلامي في الهند ؛ حتى يحتاج زائر من الشمال إلى التفاهم معهم عن طريق اللغة العربية .

(المسلمون في الهند : ص/١٣٠)